

الأصوات : مخارجها وترتيبها عند الخليل وسيبويه

بقلم : إبراهيم الشمسان / الرياض

تطرقنا في حلقة سابقة إلى كيفية ترتيب معجم العين لدى الخليل والسيبويه الذي استخدمه لبيد هذا المعجم . ولها نحن نعود في هذه الحلقة لتناول مخارج الحروف عند الخليل وسيبويه .

مخارج الحروف عند الخليل

ما نجده في العين من وصف للمخارج وترتيب لها ليس واضحاً ولا يوافق النظرة العلمية والوصف العلمي الحديث للمخارج ، بل إن هذا الاضطراب قد لاحظته القدماء أنفسهم وحاولوا مناقشته بل إن منهم من أنكر أن يكون العين من وضع الخليل واعتبر له قوم ودافعوا عنه ، كل هذا ليس بمجالة هنا ، وحسبنا أن نشير إلى هذه المشكلة التي جعلت بعض الدارسين المحدثين مثل إبراهيم أنيس يعرض عما جاء في العين ويدرس ما جاء عند سيبويه على افتراض أنه مأخوذ عن الخليل ، يقول أنيس : « وقد لخص سيبويه في آخر كتابه المشهور آراء الخليل في أصوات اللغة في دقة وأمانة » ، وهذا الصنيع أمر سهل ولكن اغفال ما ورد في العين لا مسوغ له ، ونحاول الآن التعرف على المخارج وترتيب الحروف عند الخليل . يقول الخليل : « في العربية تسعة وعشرون حرفاً منها خمسة وعشرون حرفاً صحاحاً لها أحياز ومخارج وأربعة هوائية وهي : الواو والياء والألف اللينة والمهزة » .

يقسم الحروف على قسمين ، خمسة وعشرون حرفاً صحاحاً أي غير معتلة لها مخارج ، أما الأربعة الباقية فهي المعتلة أو هي الحركات الطويلة في مفهوم علم اللغة الحديث باستثناء

المهزة ، وهي هوائية أي لا مخرج لها وما ورد عن هذه الأحرف يظهر إصرار الخليل على تسميتها هوائية ويستدل كمال بشر بذلك على احساس الخليل بأن هذه الحروف حركات .

وهذه الحروف غير الصحيحة - كما يرى الخليل - لا مخارج لها لذلك عزلت عن غيرها وألحقت بالصحاح تبعاً لها . أما المهزة فهي متميزة عنده عن أحرف المد بل لعلمه بحس بعدم استقرار موقفه نحوها ، إذ نجده مرة يقول عنها : « وأما المهزة فمخرجها من أقصى الحلق مهتزة مضغوطة » ، وجدير به أن يصفها أول الحروف ولكن فكرة الجوفية والهوائية تلح عليه مضافاً إلى ذلك حالها الصرفية ، كل ذلك جعله ينحيزاً عن الحروف ذوات المخارج ويلاح على أنها هوائية أو خارجة من الجوف ليس لها حيز تنسب إليه غيره . ولقد أفاض كمال بشر في دراسته للمهزة فقرر أن الخليل وتلامذته الذين جمعوا آراءه في العين يخلطون في مخرج المهزة وذلك في نقطتين أحدهما عدم نسبتها إلى مخرج وإصرارهم على أنها في الهواء وهذا غير صحيح إذ أنها حنجرية ، والنقطة الثانية ضمهم المهزة إلى الألف والواو ونسبتها إلى الهواء ،

فهو المهزة ليس منطلقاً من الجوف إلى الخارج بدون عائق كما يحدث للألف والواو والياء وإنما يقف وقفا تاماً في الحنجرة . ويعلل ذلك بمعاملتهم المهزة معاملة حروف العلة ،

وعلم قدرتهم على تحديد مخرجها تحديداً دقيقاً . ولعل هذا الخلط هو الذي جعل الخليل لا يبدأ بالمهزة .

أما بقية الحروف فيمكن تلخيص ما ورد بشأنها من إشارات متفرقة مع موازنة مخارجها وترتيبها بالمخارج والترتيب الذي يراه علم اللغة الحديث معتمداً في ذلك على ما ورد في كتاب « علم اللغة العام للأصوات » لكامل محمد بشر على أن تبدأ من الحلق مخالفين بذلك المحدثين .

« حروف حلقية .. مخرجها من الحلق وهي على حيزين : الأول : العين والحاء والماء . الثاني : الخاء والغين . وليست هذه الحروف كلها حلقية عند المحدثين فالحاء حنجرية كالمهزة وعلى هذا تسبق العين في الترتيب ولا تكون معها في مخرج واحد ، أما العين والحاء فهما حلقيتان وبهذا الترتيب أيضاً . الخاء والغين فليسا حلقيتين وإنما هما من أصوات أقصى الحنك مع الكاف والواو ويأتیان بعد القاف ، أما ترتيبهما فصحيح فالغين بعد الخاء .

« حروف لوية .. مخرجها من اللهاة وهي : القاف والكاف وذكر لهما مخرجاً مع الجيم وهو : من بين عكدة اللسان وبين اللهاة في أقصى القم . والقاف لوية عند المحدثين

أصوات : مخارجها وترتيبها عند الخليل وسيبويه

ولكنها تسبق الخاء والغين . أما الكاف فليس لها بل هو مع الخاء ، والغين ، والواو وهي من أصوات أقصى الحنك وتأتي بعد الغين في الترتيب .

• حروف شجرية .. مخرجها من شجر الفم أي منفرجة ، وهي : الجيم والشين والضاد وعند المحدثين الجيم والشين أصوات لثوية حنكية أما الضاد فهي من الأصوات الاستثنائية اللثوية مع التاء والدال والطاء واللام والنون . وهذا ترتيبها : (ت ، د ، ض ، ط ، ل ، ن) .

• حروف أسلية .. مخرجها من أسلة اللسان أي مستدق طرفه ، وهي : الصاد والسين والزاي ، وعند المحدثين هي أصوات لثوية مع الراء وترتيبها : (ر ، ز ، س ، ص) .

• حروف نطعية .. مخرجها من نطع الغار الأعلى وهي : الطاء والتاء والدال . وهذه عند المحدثين تولف مع غيرها الأصوات الاستثنائية اللثوية ، وهي : (ت ، د ، ض ، ط ، ل ، ن) .

• حروف لثوية .. مخرجها من اللثة وهي الطاء والدال والتاء ، وعند المحدثين هي أصوات استثنائية وترتيبها (ث ، ذ ، ظ) .

• حروف ذلقية .. مخرجها من طرف ذلق اللسان ، من طرف غار الفم وهي الراء واللام والنون . ولطرف اللسان دخل في تشكيل مخرج هذه الحروف لكنه لا يشترك مع عضو واحد فقط حتى تكون هذه الحروف من مخرج واحد ، والراء عند المحدثين صوت لثوي مع الزاي والسين والصاد وترتيبها : (ر ، ز ، س ، ص) . أما اللام والنون بهذا الترتيب فقريبان من الراء ولكنهما صوتان استثنائيان لثويان مع التاء والدال والضاد والطاء وترتيبها : (ت ، د ، ض ، ط ، ل ، ن) .

• حروف شفوية .. مخرجها من بين الشفتين وهي : الفاء والباء والميم والفاء عند المحدثين صوت استثنائي شفوي ، والباء والميم صوتان شفويان .

• حروف هوائية .. في حيز واحد لا يتعلق بها شيء وهي : الياء والواو والألف والهمزة ، وفي موضع آخر « أما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق » .

وبحال الخلاف بين الخليل والمحدثين هنا كبير ، فهو في الياء والواو لا يفرق بين حالين لهما يذكرهما المحدثون ، فالحال الأول في مثل : ولد يعلم فهما هنا صوتان صامتان ، والحال الثانية في مثل : يدعو وترمي فهما هنا حركتان طويلتان . فالخليل نظر إليهما نظرة واحدة واعتبرها حرفي علة وغض عليه مخرجهما فصنّفهما في الهواء ، أما المحدثون فيصنفون الواو والياء مرتين مرة مع الأصوات الصامتة ومرة مع الحركات ، فالواو في الصوامت من أصوات أقصى الحنك وهي (خ ، غ ، ك ، و) ، والياء في الصوامت هي أصوات وسط الحنك .

أما الألف فقد ضمها إلى هذين الحرفين لأنها معتلة مثلهما ، أما الهمزة فهي عنده كما مر سابقا تختلف عن الياء والواو والألف وإن كان نصيبها تغيرات حرفية لذا فهي تخرج من أقصى الحلق مرة وفي الهواء مرة أخرى ، أما قوله بخروجها من أقصى الحلق فهو أقرب إلى نظرة المحدثين فهي عندهم حنجرية فلعله لم يعرف الحنجرية وإنما عبر عنها بأقصى الحلق ، ولكنه رغم هذا لم يصنفها مع الحروف الصالح ربما لأنه وجدها تعتل ، ولكنه يؤكد على أن أقصى الحروف - وقد يقصد الصالح فقط - هو العين . ومهما يكن من أمر فهو لم يوفق في تصنيف الهمزة كما يقول كمال بشر .

مخارج الحروف عند سيبويه

المادة الصوتية في الكتاب أغزر وأدق من المادة الصوتية في العين ، والغريب أن سيبويه لم يصرح بمصدر هذه المادة ، أمن استأذنه الخليل أم من عمله هو ؟ ولم يشر إلى العين وطريقته في ترتيب الحروف والذي نستنبذه هو عدم تأثره بالخليل ولكنه قد يكون أضاف بعض التعديلات حتى وصل إلى ما وصل إليه ، وفي الحديث عن المخارج في الكتاب وضوح وترتيب لا نجدهما في العين . وعدد المخارج ستة عشر مخرجا في الكتاب ، أما عند كمال بشر فهي أحد عشر مخرجا فقط .

وسنحاول الآن أن نلخص المخارج كما وردت في الكتاب . ونوازنها بالنظرة الحديثة على أننا سنبدأ من الحلق كما يفعل علماء العربية القدماء .

• من أقصى الحلق : مخرج الهمزة والهاء والألف . والهمزة والهاء عند المحدثين من الأصوات الحنجرية أما الألف فهو حركة طويلة وباستثناء الألف يكون ما ذهب إليه سيبويه صحيحا على افتراض أن أقصى الحلق يقصد به الحنجرية . من أوسط الحلق : مخرج العين والحاء ، وهي عند المحدثين أصوات حلقية فسيبويه موفق في تحديده هذا .

• من أدنى الحلق : مخرج الغين والحاء ، وعند المحدثين يجمع هذان الصوتان بعد القاف وهما من أصوات أقصى الحنك مع الكاف والواو ، أما الخاء فهي بعد الغين كما ذكر سيبويه وترتيب أصوات أقصى الحنك هو (غ ، خ ، ك ، و) .

• من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى : مخرج القاف أي أن مخرجها أقصى الحنك ، ولكن المحدثين يعتبرونها لثوية تسبق الغين والحاء .

• من مؤخر اللسان وما يليه من الحنك الأعلى : مخرج الكاف وهي عند المحدثين من أصوات أقصى الحنك وهي (خ ، غ ، ك ، و) ويظهر أن الكاف عند سيبويه لا تختلف عنها عند المحدثين .

• من وسط اللسان ووسط الحنك الأعلى : مخرج الجيم والشين والياء ، وهذا موافق لما عليه المحدثون ، ويسمونها أصوات وسط الحنك (١) ، أما كمال بشر فيقتصر أصوات وسط الحنك على الياء ويسمى الجيم والشين أصوات لثوية حنكية .

• من أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس : مخرج الضاد ، أما الضاد عند المحدثين فهي استثنائية لثوية مع التاء والدال والطاء واللام والنون وترتيبها (ت ، د ، ض ، ط ، ل ، ن) .

• من أدنى حافة اللسان إلى منتهى طرف اللسان ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى وما فوق الثنايا والنايب والرابعة والتنبيه : مخرج اللام ، أما اللام عند المحدثين فهي استثنائية لثوية ، أو لثوية حنكية ولا فرق كبير بين نظرة سيبويه والمحدثين إلى هذه المخرج غير أنهم يصنفون اللام مع حروف أخرى هي (ت ، د ، ض ، ط ، ل ، ن) .

الأصوات : مخارجها وترتيبها عند الخليل وسيبويه

المسومع ، وهذا يعني أنها سنية بالنسبة للوضع الأول ولثوية للوضع الثاني .

• وقد اتبه سيبويه وابن جني إلى التقاء طرف اللسان بالأسنان وأهمل التقاءه بالثنية .
• ذكر الألف في الأبجدية لا يوافق عليه المحدثون لأن الأبجدية للأصوات الصامتة ، ثم لا يوافقون على وضعها مع الهمة لأن الهمة حنجرية والألف يتحدد مخرجها بوضع اللسان وضعا معينا تجاه الحنك الأعلى .

ولا أجد تفسيراً مقنعاً يمكن أن يوضح هذا الاختلاف ، فعمل سيبويه عند تعدده للحروف لم يقصد ترتيبها ، ولكن هذا غير مقنع أيضاً وربما وقع خطأ من النسخ لهذه النسخة من الكتاب .

وهما يكن فائنا نجد عند ابن جني ترتيباً ينسبه إلى سيبويه وهو لا يتفق مع الترتيبين المذكورين كل الانفاق : أما الترتيب فهو :
أ هـ ع ح غ خ - ق - ك - ج
ش ي - ض - ل - ر - ن - ط - د - ص
ز - س - ظ - ذ - ف - ب - م - و .

يختلف هذا الترتيب عن ترتيب سيبويه المخرجي في الآتي :

• الألف تسبق الهاء في ترتيب ابن جني وفي ترتيب سيبويه للحروف أيضاً أما الترتيب المخرجي فهي بعد الهاء .

• القاف قبل الكاف في رواية ابن جني وترتيب سيبويه للمخارج أما ترتيبه للحروف فالقاف بعد الكاف .

• الحروف (ج ، ش ، ي) تسبق الضاد في ترتيب ابن جني والترتيب المخرجي عند سيبويه ، وتكون بعد الضاد في ترتيبه للحروف .

• الراء تسبق النون في ترتيب ابن جني وترتيب سيبويه للحروف ، أما ترتيبه المخرجي فتكون الراء بعد النون .

• الزاي والسين بعد الصاد في ترتيب ابن جني وترتيب سيبويه للحروف ، أما في الترتيب المخرجي فهما قبلها .

ونجد ابن جني نفسه أيضاً عند بيان المخارج يجعل الراء بعد النون وليس قبلها كما ذكر في تعدده للحروف ، وقد لاحظ هذه الملاحظة كمال بشر أيضاً □

أو أن العرب كانت تتكلم عن قاف غير القاف الحاضرة ، ولعلها ما يسمى بالجاف أو ما يشبه الكاف الفارسية ، وهو الصوت الذي نسمعه في بعض جهات الصعيد .

• الضاد عنده بعد الياء ومثل اللام وهي من مخرجها ، أما الضاد عند المحدثين وكما تنطق اليوم فهي في الترتيب مع التاء والذال والطاء . وهناك احتمالان لهذا الاختلاف الأول هو احتمال اخفاق سيبويه في معرفة مخرجها ، والثاني هو احتمال أنه يتحدث عن ضاد غير الضاد الحديثة ، ويؤيد هذا الاحتمال أنه نسبها إلى مخرج لا يشاركها فيه حرف آخر ، وجعله الطاء النظير المقمّم للذال وليس الضاد فهي عند المحدثين نظير الذال ، ووصفها عند ابن جني بأنها تتكلف من جانب القم الأيمن أو الأيسر ، وهي عندهم ليست انفجارية بل رخوة فهي احتكاكية جانبية ، ويرى يوهان فك أن هناك ضادا أصلياً نظيراً مقمّم للذال تشبه الضاد الحالية تغيرت مع الفتوح الإسلامية ، فإذا صح رأي يوهان فك فإن هناك احتمالين على الأصح هما :

• خطأ تحديد مخرجها عند سيبويه .
• أنه يعني الضاد المولدة وليس الضاد الأصلية .

والذي أراه شخصياً أن احتمال وجود ضاد أصلي لم يعن بها سيبويه هو احتمال ضعيف ذلك أن قراءة القرآن لم تتأثر بالفتوح والدراسات الصوتية مبنية على قراءة القرآن ورواية الأشعار ، فلو كان هناك ضاد أصلي لاثبتها سيبويه في الحروف لأنها ستكون في القرآن ولأشار إلى المولدة في الحروف الفروع التي ذكر ، وهذه الضاد الأصلية كما يسميها يوهان فك ليست مطردة في اللهجات العربية ذلك أنك لا تجدها في العراق ولا في نجد فالضاد عندهم كثيراً ما تلتبس بالطاء وهذا الخلط قديم حتى اضطّر العلماء إلى وضع كتب خاصة للضاد والطاء ورسم الكلمات الواردة بهما .

• الصاد والزاي والسين بعد الطاء والذال والتاء ، وهذا عكس ما عليه المحدثون وفي النطق الحالي للزاي والسين والصاد يوضع طرف اللسان خلف الأسنان العليا مع التقاء مقدم اللسان بالثنية التقاء خفيفاً يحدث الاحتكاك

• من طرف اللسان ومن بين ما فوق الثنايا : مخرج النون ، فهو صوت أسناني لثوي وهذا ما عليه المحدثون .

• من طرف اللسان وفوق الثنايا ، ادخل في ظهر اللسان : مخرج الراء وهو يوافق ما يسميه المحدثون صوتاً لثوياً ويصفونه مع أخرى هي (ر ، ز ، س ، ص) .

• من بين طرف اللسان وأصول الثنايا : مخرج الطاء والذال والتاء ومعنى هذا أنها أصوات أسنانية - لثوية بالتعبير الحديث وهو وصف دقيق كما يقول كمال بشر .

• بين طرف اللسان وفوق الثنايا : مخرج الزاي والسين والصاد وهي أصوات لثوية كما هي عند المحدثين غير أنهم يزيدون الراء وهذا ترتيبها (ر ، ز ، س ، ص) .

• بين أطراف اللسان وأطراف الثنايا : مخرج الطاء والذال والتاء وهذا موافق لما عليه المحدثون فهي أصوات أسنانية وترتب هكذا (ث ، ذ ، ظ) .

• من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا : مخرج القاء ، وهذا موافق لما عليه المحدثون والقاء عندهم صوت أسناني شفوي .

• من بين الشفتين : مخرج الباء والميم والواو ، وهذا موافق أيضاً لما عليه المحدثون غير أنهم يصنفون الواو مع أصوات أقصى الحنك ولا يرون بأساً في تسميتها بالشفوية لاستدارة الشفتين عند النطق بها .

• من الخياشيم : مخرج النون الخفيفة ، ولا يرى المحدثون حاجة إليه لأنه فرعي على المخرج رقم (٩) .

وأذكر هنا بعض التحفظات والملاحظات حول دراسة سيبويه للمخارج ، وهذه الملاحظات مأخوذة من كتاب « علم اللغة العام للأصوات » لكمال محمد بشر نوجزها في النقاط الآتية :

• عد الواو شفوية يحتاج إلى تكملة ذلك لأنها تخرج في نحو (ولد) من أقصى الحنك مع اتخاذ الشفتين وضعا معينا . فيمكن وصفها بأنها : حنكية شفوية .

• وضع القاف بعد صوتي الغين والخاء مخالف للمحدثين فهي قبلهما عندهم ، ويرجع ذلك إما لخطأ في تقدير الموضع الدقيق لها ،